

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (57- 95):تفسير 57 الآيات 174-176، الأحكام

الشرعية ضمان لسلامتنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-09-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الله جل جلاله أنزل تشريعاً ومنهجاً على رُسُلِهِ ليضبط حركة الناس في الحياة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الرابعة والسبعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام.. الله جل جلاله أنزل تشريعاً ومنهجاً على رُسُلِهِ ليضبط حركة الناس في الحياة، لأن الناس كائناتٌ أودعت فيهم الشهوات، بمقتضى هذه الشهوات يتحركون، الدافع إلى الطعام والشراب يدفع الإنسان إلى العمل، ليشتري بأجرته طعاماً يأكله هو وأولاده، وهذا من أجل الحفاظ على بقاء الفرد، والدافع إلى الجنس يقتضي أن يحافظ الإنسان به على النوع، وهذا يقتضي شراء بيت، وتأثيث البيت، وخطبة فتاة، والاقتران بها، وإنجاب الأولاد، هذه الدوافع الأصيلة في الإنسان تدفع الإنسان إلى الحركة، حركة الناس في الحياة.

انظر إلى طريق مزدحم بالمارّة والسيارات، كل إنسان يسعى إلى هدف، هذه حركة، لولا هذه الدوافع التي أودعها الله في الإنسان لما رأيت حركة في الحياة، حركة الناس في الحياة، هذه الحركة جاء منهاج الله ليضبطها، ليجعلها في صالح الإنسان في دنياه وفي أخراه.

الأحكام الشرعية ضمان لسلامة الناس :

أيها الأخوة... الإنسان محكوم في هذه الدنيا بأحكام شرعية، كل شيء له حكم شرعي؛ هذا حلال، هذا مباح، هذا حرام، هذا مكروه، هذا مكروه تنزيهاً، هذا مكروه تحريماً، هذه سنة، هذه سنة مؤكدة، هذا واجب، هذا فرض، أي شيء يمكن أن تتحرك من خلاله، له حكم شرعي، لماذا جاء الشرع؟ جاء ليضبط حركة الإنسان في الحياة، ليأمره أن يفعل وألا يفعل، إن أمره ألا يفعل ينبغي ألا يتوهم الإنسان أن هذا النهي قيدٌ لحريته، إنما هو ضمانٌ لسلامته.

فإذا حرم الله على الإنسان أن يسرق، قد يتصور أن هذا قيد، أنت محرمٌ عليك أن تسرق، ومحرمٌ على ألف مليون أن يسرقوا منك، لصالح من؟ محرمٌ عليك أن تفعل الفاحشة، ومحرمٌ على ألف مليون أن يفعلوا مع من يلودوا بك الفاحشة، هذا الشرع لكل المؤمنين، بالأصل لكل الناس كافة لضبط حركتهم في الحياة، حينما تتوهم أن هذا الشرع قيدٌ لحريتك فأنت لا تعرف شيئاً، إنما هو ضمانٌ لسلامتك، وإذا منعك من شيء منع كل الناس من هذا الشيء ضماناً لمصالحك، وضماناً لحريتك، وضماناً لكرامتك. إذاً هذا المنهج هو الذي يسعد الناس في الدنيا ويسعدهم في الآخرة، منهج الله، الأمر والنهي، ويسبقه معرفة الله، هذا الذي يكتب هذا المنهج عن الناس، أو يشوّهه، أو يزوره، أو يختلق منهجاً ويعزوه إلى منهج السماء، ماذا فعل؟ هذا أفسد على الناس طريق سلامتهم وسعادتهم، فإن تكتم الحق هذه جريمة كبيرة، لأنك إن كتمت الحق أشقيت الناس، الإنسان لا يسعد إلا إذا طبق منهج الله. لا يسعد، والأدق من ذلك لا يسلم ولا يسعد إلا إذا طبق منهج الله، فإذا أغفلت هذا المنهج، أو كتمته، أو عثمت عليه، أو شوّهته، أو زوّرتة، أو أدخلت فيه ما ليس منه، أو حذفته منه، ماذا فعلت؟ هذه جريمة. لذلك هذا المنهج من يقيم ثمنه الحقيقي؟ واضعه، الذي أنزل هذا المنهج هو الذي يقيم ثمنه، ثمنه الجنة، هذا الثمن أبدي، هذا الثمن مستمر، هذا الثمن تصاعدي، أما هذا الذي يكتب المنهج ليأخذ بهذا الكتمان ثمناً قليلاً، بخساً، أنياً، منقطعاً، هو أكبر خاسر.

تطبيق منهج الله ثمنه الجنة وهذا هو الثمن الذي وضعه الله لمن يطبّقه :

لو فرضنا أن معملاً فيه ألف عامل، وفيه تعليمات دقيقة، قد يكون معملاً كيميائياً، أو معملاً إلكترونياً فيه طاقة عالية جداً، وفيه تعليمات دقيقة جداً لسلامة العمال، ولنجاحهم في عملهم، فلو أن أحد الموظفين كتم هذه التعليمات، فحصل انفجار أودى بثلاثي عمال هذا المعمل، هذه أكبر جريمة. هذا المثل يمكن أن يوسّع:

هذا الذي يكتب ما أنزل الله، يعتّم، يزور، يدخل ما ليس فيه، يحذف منه ما هو أساسي، شوّه هذا المنهج،

لم يُعدّ صالحاً لسلامة الناس ولا لسعادتهم، كفر الناس به، ابتعدوا عنه، أكرم بحق هؤلاء جميعاً. فذلك تطبيق هذا المنهج ثمنه الجنة، وهذا هو الثمن الذي وضعه الله لمن يطبّقه.

الآن قد يخطر في بال إنسان أن يفتي فتوى يرضي بها بعض الأغنياء، سيعطونه مبلغاً كبيراً، أو مكانة عالية، أو يهدونه شيئاً ثميناً، هو بقصور عقله توهم أن هذه المرتبة تساوي هذه الفتوى بثمن، ماذا فعل هذا الإنسان؟ اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، لذلك قال الله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)

لماذا هم يكتُمون؟ من أجل عرض من الدنيا قليل:

((الدنيا تغر وتضر وتمر))

[الجامع الصغير عن عمرو بن مرة]

الدنيا زائلة، الدنيا منقطعة، الدنيا فانية، فهذا الذي أخذ ثمناً بخساً؛ مالا، أو مكانة، أو هدية، وكنتم ما أنزل الله، أي أفتى بخلاف ما يعلم، لا أقول أفتى بلا علم، هذا الآخر له حساب آخر، ولكنه أفتى بخلاف ما يعلم، هو يعلم الحقيقة، ويعلم الحكم الشرعي، ويعلم المنهج الصحيح، لكنه كنتم هذا المنهج مقابل ثمن بخس في الدنيا، وهذا المنهج ثمنه الجنة، ثمنه جنة عرضها السماوات والأرض خالدين فيها أبداً، ثمنه سعادة أبدية مستمرة متناهية، فهو قبض ثمناً بخساً مقابل كتمان هذا المنهج.

الآية التالية تنطبق على من سكت عن الحق حفاظاً على مكاسبه الدنيوية :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ)

اليهود كنتموا صفات النبي التي في توراتهم عن مشركي مكة وعن مشركي العرب:

(حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ)

[سورة البقرة الآية : 109]

بغياً وحسداً، من أجل أن تبقى لهم زعامتهم، ومكانتهم، ورناستهم فكنتموا هذا المنهج، وأي إنسان حفاظاً على مكاسبه الدنيوية سكت عن الحق، هذا تنطبق عليه هذه الآية، حفاظاً على مكانته، حفاظاً على مكاسبه، حفاظاً على ميزاتٍ حصلها بجهدٍ جهيد، فكنتم الحق ونطق بالباطل إرضاءً لقوي، هذا تنطبق عليه هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتُرُونَ)

بهذا الكتمان..

(وَيَسْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

خالق السماوات والأرض قال: هذا ثمن قليل، فمثلاً لو كان عندك قطعة ألماس، أنا شاهدت قطعة في متحف باسطنبول قطعة ألماس ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، هي أضخم قطعة ألماس في العالم فيما كُتِبَ عنها، لكن لو أن إنساناً باعها بمئة ليرة، ألم يبيعها بثمن بخس؟! والأمر أبلغ من ذلك، سعادة أبدية باعها ببيت، باعها بمنصب، باعها بسيارة.

المكسب الذي يربحه الإنسان من كتمان العلم مآله النار :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ)

الإنسان حاجته للثمن في الدرجة الأولى ليشتري به الطعام والشراب، الحاجة الأولى هي الطعام والشراب - الجنس تأتي بعدها - ليشتري به طعاماً، هذا الطعام الذي اشتراه به، الذي دفع ثمنه، هذا المكسب الذي جاءه من كتمان العلم، قال: هذا الطعام كأنه نارٌ تحرقه، فهو في الحال طعام أما في المال نار.

لو أن إنساناً غشَّ المسلمين ببضاعةٍ، عنده معمل أغذية وغشَّهم في هذه الأغذية، وغشَّهم بشكلٍ مؤذٍ، وحقق أرباحاً طائلة، واشترى مثلاً مزرعة، ومسبجاً، وبيتاً جميلاً، هذا الذي اشتراه هو في الحال مزرعة، أما في المال فجهم - كلام دقيق - في الحال طعام أكله، إذا كان لشخص دخل حرام قد يشتري أطيب الطعام، وقد يسكن أجمل بيت، وقد يركب أجمل مركبة، لكن هذا الشيء حالياً طعام، وبيت، ومركبة، أما مآلاً فنارٌ تحرقه..

(أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ)

هذا والله كلامٌ مخيف، فقبل أن تقف موقفاً، قبل أن توافق، قبل أن ترفض، قبل أن تداهن، قبل أن تنبسم، قبل أن تتناقق، قبل أن تقول كلاماً لست مقتنعاً به إطلاقاً، عد للمليون، لأن هذا الموقف سُجِّلَ عليك، وأنت محسوبٌ على المؤمنين.

الآية التالية وإن نزلت في اليهود لا يمنع أن تكون عامة شاملة :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

طبعاً أنزلت هذه الآية في اليهود، الذين كتموا صفات النبي عليه الصلاة والسلام، حفاظاً على زعامتهم ومكانتهم ومكاسبهم، أو بغياً وحسداً منهم للنبي عليه الصلاة والسلام.

لكن هذه الآية وإن نزلت في هؤلاء الذين كتموا صفات النبي، لا يمنع أن تكون عامة شاملة تشمل كل إنسان سكت عن الحق إرضاءً لجهة ما، وقد حقق من هذا السكوت مكاسب كبيرة، هذه المكاسب بكل أنواعها إنما هي نارٌ سوف تحرقه.

أحياناً إنسان يكون كالمندبل، تُمسح به أقدار عملية ثم يلقى في المهملات، أنت لله، أنت أخطر من ذلك، فهؤلاء الذين..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْلَانِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِيَّا

النَّارَ)

أيها الأخوة... ربنا عز وجل يقول :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِيَّا اللَّهِ)

[سورة الأحزاب الآية : 39]

إن لهؤلاء الدعاة آلاف الصفات، الله عز وجل أغفلها كلها إلا صفة واحدة، هذه الصفة أنهم لا يخافون في الله لومة لائم، ينطقون بالحق ولا يخافون في الله لومة لائم، لو أنهم نطقوا بالباطل خوفاً من جهة ما، أو نطقوا أو سكتوا عن الحق خوفاً من جهة ما، لسقطت دعوتهم، ماذا بقي من دعوتهم؟

كل إنسان يبتز أموال الناس على حساب قيمه ومبادئه يأكل النار :

يا أيها الأخوة الكرام...

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْلَانِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِيَّا

النَّارَ)

أي أن كل المكاسب التي حصلوها إنما هي نارٌ سوف تحرقهم، والله قال لي مرة أحدهم: إنسان له مهنة أساسها فيها ثقة، كطبيب يقول لك: حلل، ثحلل، اشتر هذا الدواء، تشتريه، لا بد من إجراء عملية، فالمهنة أصحابها موثوقون، وفي الأعم الأغلب هؤلاء كذلك، أما إذا كان في حالات شاذة، كأنسان مثلاً من أجل تجميع أكبر ثروة ممكنة، غش الناس في صحتهم، اقترح عليهم إجراء عمليات ليسوا بحاجة إليها، وحقق أرباحاً كبيرة منها، واشترى بيتاً فخماً، واشترى مزرعة فخمة، الإنسان البصير الذي أوتي فراسة يرى أن هذا البيت كأنه يشتعل بهم، وأن هذه المزرعة كأنها تشتعل بهم، حينما تحصل مالاً حراماً على حساب صحة الناس، أو على حساب سلامتهم، أو على حساب أمنهم، أو على حساب استقرارهم، أو على حساب عواطفهم النبيلة.

الدرس (57-95): تفسير 57 الآيات 174-176، الأحكام الشرعية ضمان لسلامتنا

في أوروبا هناك من يخطف الأطفال، يطلب مليون دولار، والأب يدفع، لكن هذا استغل العواطف المقدسة التي بين الآباء والأبناء، وابتز بها أموال الناس، فكل إنسان يبتز أموال الناس وعلى حساب قيمه ومبادئه هذا يأكل النار..

(أَوْلَيْكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْتُمُهُمُ اللَّهُ)

طبعاً العلماء قالوا: لا يكلمهم كلاماً مؤنساً، الله عز وجل يعنهم، رب العالمين قد يرسل الملائكة لتلقي السلام على المؤمنين:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ)

[سورة الأحزاب الآية : 44]

رب العالمين أنس سيدنا موسى :

رب العالمين أنس سيدنا موسى، إنسان يجلس في بيت، جاء طفل ابن صاحب البيت ومعه لعبة، إذا أحب هذا الضيف أن يؤنس هذا الطفل الصغير، ماذا يقول له؟ ما هذه التي بيدك؟ الضيف بالغ، عاقل راشد، ألا يعلم ما هي؟ لعبة، يقول لهذا الطفل الصغير: ما هذه التي بيدك؟ هذا كلام إيناس، كلام تحبب، كلام فيه مودة، فربنا عز وجل قال:

(وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

[سورة طه الآية : 17]

هذا كلام إيناس، سيدنا موسى كان يُجزئه أن يقول: عصا، لكنها فرصة لا تعوّض أن رب العالمين يكلمه، قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية : 18]

مفهوم:

(وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَنَمِي)

[سورة طه الآية : 18]

أيضاً مفهوم، يريد أن يطيل الحديث، أن يطيل الكلام مع الله عز وجل قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَنَمِي)

[سورة طه الآية : 18]

وأراد أن يسمح الله له أن يطيل أكثر وأكثر فقال:

(وَلِي فِيهَا مَارَبٌ أُخْرَى)

[سورة طه الآية : 18]

أي كأنه يتمنى أن يقول الله له: وما هذه المآرب يا موسى؟ يريد حديثاً طويلاً جداً، هذا كلام إيناس أيها الأخوة، كلام تحبب، كلام ود.

وصف الجنة :

في الجنة كما تعلمون أنهار من عسلٍ مصفى، فيها أنهارٌ من خمر:
(وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لِدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ)

[سورة محمد الآية : 15]

وفيها:

(وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ)

[سورة محمد الآية : 15]

وقال:

(فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ)

[سورة محمد الآية : 15]

فيها جئات، بساتين تجري من تحتها الأنهار، فيها حور عين، فيها ولدان مخلدون، فيها فواكه مما يشتهون:

(فَطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[سورة الحاقة الآية: 23]

(لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)

[سورة الواقعة الآية : 33]

هذه كلها أشياء حسية، لكن فيها أعظم من ذلك، فيها النظر إلى وجه الله الكريم.

((إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر))

[من رياض الصالحين عن جرير بن عبد الله]

أكبر عقاب يعاقب به الإنسان يوم القيامة أن لا يكلمه الله :

قال تعالى:

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة الآيات : 22-23]

أنت لو دخلت بيتاً، ودعيت إلى طعام نفيس جداً، الطعام، والشراب، والمقبلات، والفواكه، والحلويات، وبعدها تمتعت بمنظر صاحب هذا البيت له وجة كالبرق، أهذا أعلى شيء؟ لا هناك أعلى، الأعلى من

ذلك أن يقول لك صاحب البيت: أهلاً وسهلاً، أكرمتنا بهذه الزيارة، أنسنا بك يا أخي، نورّت هذا السكن، ترحيب صاحب البيت فوق التمتع برؤية وجهه، وفوق التمتع بطعامه وشرابه، لذلك قال تعالى:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة التوبة الآية : 72]

هناك جنة فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وفيها نظرٌ إلى وجه الله الكريم، وفيها إيناسٌ من الله، وترحيبٌ منه لعباده المؤمنين، لعل هذا كما قال الله عز وجل أعظم ما في الجنة

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

فلذلك أكبر عقاب يعاقب به الإنسان يوم القيامة أن لا يكلمه الله، هو الآن ميّت، الآن غائب عن الوعي، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، أعظم عقاب..

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

العقاب الثاني يوم القيامة عقاب الحجاب:

هناك عقاب ثان:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين الآية : 15]

عقاب الحجاب وعقاب عدم التكليم، الإنسان الآن مخدّر بالشهوات، أما إذا مات انقطعت عنه هذه الشهوات وعاد إلى فطرته. لذلك ورد في الجامع الصغير:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى))

[من الجامع الصغير عن جابر]

وذلك من عذاب الخزي والندم، الله منحه نعمة الوجود، منحه نعمة الإمداد، منحه زوجة، منحه أولاداً، منحه عقلاً، منحه شكلاً وسيقماً، منحه بيتاً، منحه كل شيء، فكان همه إيذاء الخلق، كان همه الاحتيال عليهم، ابتزاز أموالهم، الإيقاع بينهم، كان همه أن يبني مجده على أنقاضهم، أن يبني غناه على فقرهم، أن يبني أمنهم على خوفهم، أن يبني حياته على موتهم، ماذا يفعل؟

(اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

[سورة الإسراء الآية : 14]

السعادة العظمى يوم القيامة أن يكلمنا الله وأن ننظر إلى وجهه الكريم :

والله أيها الأخوة لعل الله جل جلاله يعجب من هؤلاء الذين يقعون في الكبائر، يقول الله عز وجل:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة]

شيء عجيب، أن يفعل إنسان شيئاً سيدمره إلى أبد الأبد من أجل لقمةٍ من حرام، من أجل دراهم معدودات يبيع دينه وآخرته، يحلف البائع مئة يمين أنها ليست رابحة، ولا يوجد منها، وأوقفوا استيرادها، وهي أحسن نوع، ولم يربح منها شيئاً، وكل هذه الأيمان كاذبة، ليبيع سلعةً فقط، باع دينه، وأشهد ربه كذباً على شيءٍ خسيس، لذلك هذا الذي يبيع النفيس بالخسيس إنسانٌ أحمق.

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

والله أيها الأخوة إذا سمح الله لنا أن ننظر إلى وجهه الكريم، وأن يكلمنا يوم القيامة، لهي السعادة العظمى، لأنه هو أصل الجمال، أصل الكمال، أصل النوال، هو أصل كل شيء. ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، ونضرب مثلاً للتوضيح: ابن رُبِّيَ تربية عالية، وله أبٌ حنون، عطوف، وقور، كريم، حلِيم، هذا الابن المربى تربية عالية إذا أعرض عنه أبوه يكاد يحترق، إعراضاً فقط، لم يضربه، إعراض، ما نظر إليه..

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

إذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً :

الإنسان حينما يؤمن، وحينما يستقيم على أمر الله، وحينما يتصل بالله يزكيه الله، مستحيل أن ترى مؤمناً حاقداً، مؤمناً جباناً، مؤمناً بخيلاً، مؤمناً حقوداً، مستحيل أن ترى مؤمناً مخادعاً، مؤمناً ذا وجهين، هذا ليس مؤمناً، فالله يزكي المؤمن، يزكيه في الصلاة، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، ما هذا الأدب يا رسول الله؟ قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

يقولون: الماس أعلى شيء في الأرض، بالقراريط، وثمانها آلاف مؤلفة، أساسه فحم فقط، جاءه ضغط شديد وحرارة شديدة، فالمؤمن أحياناً يُضغَطُ ضغوطاً متواصلة، لكن كل ضغط ينمي فيه صفة راقية، تجده حلِيماً، أديباً، حيباً، عفواً، صفوحاً، ودوداً، كريماً، شجاعاً، وفيّاً، هذه الصفات كلها نتائج تربية

إلهية، ما هذا الأدب يا رسول الله؟ قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

أيها الأخوة... المؤمن له أدب عالٍ جداً، تجده يغض نظره دائماً عن عورات الناس، لسانه منضبط بالحق، يذكر الله كثيراً، حركته للإصلاح دائماً، لا ينطلق بفاحشة، ولا لإيذاء الناس، يتحرك للإصلاح فيما بينهم.

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

ليت العذاب ينتهي عند قوله: أن الله لا يكلمهم، ولم يزكهم في الدنيا، قال:

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

بربكم هل كان هؤلاء عقلاء حينما كتموا الحق؟ والله هناك من يكتم الحق دائماً، بكل عصر هناك من يكتم الحق.

من أشد أنواع المعاصي تلك التي توعد الله بها مرتكبيها بأن يحاربهم :

حدثني أحد علماء دمشق الأجلاء كان في مصر، قال لي: من غرائب الصُدَف أنني حضرت موتَ أحد كبار علماء مصر، وهو على فراش الموت، رفع يديه هكذا إلى السماء ومد إصبعيه، وقال: " يا رب، أنا بريء من كل فتوى أفنتيتها في المصارف "، فيبدو أنه حينما كان في منصبٍ ديني رفيع أفتى إرضاءً لزيد أو عبيد، وأصدر فتوى، وعقب هذه الفتوى أودع في بنوك مصر ثلاثة وثمانين مليار جنيه، فهذه فتوى خطيرة جداً، فهذا يعلم علم اليقين أن هذا حرام، وهذا رباً، ومن أشد أنواع المعاصي تلك التي توعد الله بها مرتكبيها بأن يحاربهم:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة الآية : 279]

مع ذلك هناك فتاوى بأكثر المعاصي، لم تصدر هذه الفتاوى؟ من أجل ثمن من الدنيا بخس، فلثمن بخس قليل باع دينه وأخرته. قال:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ)

حينما أفتى هذه الفتوى، أو حينما كتم هذا العلم استبدل الضلالة بالهدى.

الله عز وجل بين للناس كل شيء :

بالمناسبة هناك قاعدة لغوية بعكس اللغة العامية، لو قلت لكم مثلاً: فلان استبدل التجارة بالوظيفة، ماذا نفهم منها الآن؟ استبدل التجارة بالوظيفة، الآن تاجر أم موظف؟ يحدث التباس، الباء تأتي مع الشيء المتروك، باللغة الفصحى الباء تأتي متأخرة مع الشيء المتروك:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى)

أي باعوا الهدى وأخذوا الضلالة..

(وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

ما الذي يصبرهم؟ يقول الله عز وجل:

(ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

الحجة قائمة، فعندما تنصح إنساناً مرة، ومرتين، وثلاثاً، تبين له، تعطيه الدليل، ويركب رأسه، يتحامق، ويدفع الثمن باهظاً، فلا يستطيع أن يتكلم ولا كلمة، ولا حرفاً، أما إذا لم تنصحه يضع اللوم عليك، (ذلك)، الله عز وجل بين كل شيء، لأنه يقول:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل الآية : 12]

الهدى على الله، وحيثما جاءت (على) مع لفظ الجلالة معنى ذلك أن الله ألزم بها نفسه..

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة الآية : 5]

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل الآية : 12]

(ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

الكتاب الذي جاء الله به يسكت الكفار يوم القيامة عن العذاب الذي لا يُحتمل :

الأب حينما ينصح ابنه مراتٍ ومراتٍ، ويوضح، ويبين، ويفصل، ويأتي بالأدلة والشواهد، ومع ذلك يركب الابن رأسه، ويمشي في طريق غير صحيح، حينما يدفع الثمن باهظاً؛ يسجن، أو يعاقب، أو يبقى في مؤخرة الصف، ويلتقي بأبيه، لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة، ولا كلمة أبداً، لو أن شريكين أصر أحدهما على عمل غير شرعي، الثاني رفض وفكّ الشركة، الأول سُجن، ذهب إليه شريكه ليزوره، لا يستطيع أن ينظر إليه، ما الذي يسكت هؤلاء؟ هذا العذاب الذي لا يحتمله أحد..

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

ما الذي يسكتهم؟

(نَلِكُ بَأَنَّ اللّٰهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

الكتاب فيه كل شيء..

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)

[سورة الإسراء الآية : 15]

(وَاقْدِرْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[سورة القصص الآية : 51]

وصل الله القول إليهم، والآن لا توجد حجة أبداً.

بعث النبي إلى الأمم قاطبة لأن الحق واضح :

أي مكان في العالم، في أقاصي الدنيا، علماء المسلمين جميعاً تأتي محاضراتهم إلى أقاصي الدنيا، هذا التواصل الإعلامي شيء مخيف، أي دعوة في الأرض يمكن أن تنتشر في القارات الخمس، القول يصل، والوسائل متنوعة جداً، ولعل من حكمة أن النبي عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء، ذلك أن الله علم أنه سيكون هناك هذا التواصل، فيما مضى كان لكل قوم هاد، أما الآن بعثة النبي لكل الأمم قاطبة إلى نهاية العالم، فالحق واضح، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((قد تركتكم على البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[الجامع الصغير عن العرياض]

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام، ما من شيء ولو كان صغيراً يقربنا إلى الله إلا أمرنا به، وما من شيء يبعدنا عنه إلا نهانا عنه، من أراد الهدى فالهدى بين يديه:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل الآية : 12]

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

الذي يجعلهم يصبرون، ويسكتون:

(نَلِكُ بَأَنَّ اللّٰهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

الله يعلمنا بخلقه و بأفعاله :

أي أن الله عز وجل يعلمنا بخلقه، هذا الكون، ويعلمنا بأفعاله، كل أمة طغت وبغت يقصمها الله، هناك أمم قوية جداً؛ بل أقوى أمة في العالم لا يوجد رأي فوق رأيها ولا إرادة تقهرها، لكن الله فوق الجميع،

مليون إنسان أخرج من بيته خوفاً من إعصار لم يُرَ له مثيل من أربعين عاماً، هذا الإعصار سرعته مئتان وثمانون كيلو متر، لا يُبقي ولا يذر، لا يدع بيتاً، ولا بناءً، ولا معملاً، ولا مركبة إلا حطّمها، الله عنده أدوية كثيرة.

الزلازل.. الزلازل في أربعين ثانية لم يبق شيئاً، خمسون ألفاً مدفونون تحت الأنقاض، ويحتاجون من أجل أن يعاد كل شيء إلى ميزانية كاملة، أي ما تنفقه هذه البلاد التي أصابها الزلزال في عام، هذا المبلغ يمكن أن يغطي إعادة إعمار هذه المنطقة التي تهدمت:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية : 12]

الله يعلمنا بخلقه:

(قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس الآية : 101]

ويعلمنا بأفعاله:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

(سورة الأنعام الآية : 11)

الله تعالى يربينا بالتربية النفسية التي يفعلها في قلوبنا :

قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل الآية : 112]

أحد أخواننا كان في رحلة إلى تركيا قبل الزلزال بأيام، قال لي: بلاد جميلة، خضراء، فنادق، محلات تجارية، محطات وقود، وسائل رفاه، وسائل تسلية، سواحل للسباحة، فنادق من ذوات النجوم الخمس، جمال ساحر، قال لي: العين لا تصدق أن هذا الجمال أصبح أنقاضاً، في أربعين ثانية!! هكذا فعل الله عز وجل.

يوجد عند الله زلازل، ويوجد عنده أعاصير، وعنده فيضانات، وعنده مثل ما عندنا جفاف لا يوجد ماء، فعنده أدوية كثيرة، الله يعلمنا بخلقه، ويعلمنا بأفعاله، ويعلمنا بكلامه، ويربينا بتربية نفسية، أحياناً ينقبض الإنسان، أحياناً ينشرح، يأخذ موقفاً جيداً، يلقي الله في قلبه الانشراح والسرور والسعادة، أحياناً يغلط فيلقي في قلبه الضيق والانقباض والخوف والقلق، ويربينا بأفعاله، ويربينا بأقواله، ويربينا بخلقه، ويربينا بالتربية النفسية التي يفعلها في قلوبنا، فالله عز وجل..

الدرس (57- 95): تفسير 57 الآيات 174-176، الأحكام الشرعية ضمان لسلامتنا

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

لاحظ إنساناً أخطأ مع الله، الله حلِيم، يرخي له الحبل، أول مرة لم يعرف، ثاني مرة نادم، إذا استمر يأتي البطش الإلهي، فالواحد يعرف بالضبط أنه استنفذ كل الفرص، هناك تربية لكل إنسان، لكل واحد، والبطل الذي يفهم على الله عز وجل، كل شيء بحساب:

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[الجامع الصغير عن البراء]

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

والحمد لله رب العالمين